﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: 1- 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيات لِما قبلَها:

آيـــاتُ الـلـه القرآنيَّة، وآياته الـكـونـيَّـة، على سـواء، في أنَّها جـمـيـعًـا من الحقِّ

لمّا ثبت في الجاثية مضمون قوله تعالى في الدُّخان: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ [الدخان: 38]، بما ذكر فيهما من الآيات والمنافع والحِكم؛ أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل، فقال دالًّا على عزَّته وحكمته: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ الآية[1].

وأيضًا لمّا ذكر تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم؛ ناسب الجمع بينه وبين خلق السَّماوات والأرض، والحقِّ الَّذي خُلِقا به، ففي هذا الجمع إشارة إلى أنَّ آيات الله القرآنيَّة، وآياته الكونيَّة، على سواء، في أنَّها جميعًا من الحقِّ، وأنَّ ما يتلوه أصحاب الألباب من صحف الكون، هو شبيه بما يتلونه من كتاب الله وآياته، فالحقُّ يأتي عن طريق السَّمع من الكتاب المنزَّل، وعن طريق النَّظر في آيات الله الكونيَّة[2].

وأيضًا لَمّا كانَ مِن أهَمِّ ما جاءَ بِهِ القُرآنُ إثباتُ وحدانيَّةِ الله تَعالَى، وإثباتُ البَعثِ والجَزاءِ؛ لِتَوَقُّفِ حُصولِ فائِدَةِ الإنذارِ عَلى إثباتِهِما؛ جُعِلَ قَولُهُ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ تَمهيدًا للاستِدلالِ عَلى إثباتِ الوَحدانيَّةِ والبَعثِ والجَزاءِ، فَجُعِلَ خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ مَحَلَّ اتِّفاقٍ، ورُتِّبَ عَليهِ أنَّهُ ما كانَ ذَلِكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 121.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 261.

الخَلقُ إلّا مُلابِسًا لِلحَقِّ، وتَقتَضِي مُلابَسَتُهُ لِلحَقِّ أنَّهُ لا يَكونُ خَلْقًا عَبَثًا، بَل هوَ دالٌّ عَلَى أنَّهُ يَعْقُبُهُ جَزاءٌ عَلى ما يَفْعَلُهُ المَخلوقونَ[1].

وأيضًا لمّا بَيَّن اللّهُ تعالى إنزالَ كِتابِه المتضَمِّنِ للأمرِ والنَّهيِ؛ ذكَرَ خَلْقَه السَّماواتِ والأرضَ، فجَمَع بيْنَ الخَلقِ والأمرِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: (كتب) أصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى جَمْعِ شَيءٍ إلَى شَيءٍ[3]، وقد كتب الكتاب يَكْتُبُهُ كتبًا؛ إذا جمع حُروفه[4]، والكتاب: الفَرْضُ والحُكْمُ والقَدَر[5]؛ إذ به يُعبَّر عن الإثبات والتَّقدير والإيجاب والفرض والعزم والإلزام، ووجه ذلك أن الشَّيء يُراد، ثمَّ يقال، ثم يُكتب، فالإرادة مبدأ، والكتابة منتهى، ثم يُعبَّر عن المراد الَّذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة الَّتي هي المنتهى، ومنه ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ [آل عمران: 154][6].

2) ﴿مُعْرِضُونَ﴾: يرجع أصل الكلمة إلى العَرضِ الَّذي يقابل الطّول، ومِن البابِ: عَرَضَ المَتاعَ يَعرِضُهُ عَرضًا، وهوَ كَأنَّهُ في ذاكَ قَد أراهُ عَرْضَهُ، وأصله أن يقال في الأجسام، كقولنا: أعرض عن فلان، ثمَّ يُستعمل في غيرها، مثل: أعرض عن الأمرِ؛ لأنَّهُ إذا كانَ كَذا؛ ولّاهُ عَرْضَهُ؛ تعبيرًا عن عدم الاهتمام به والانشغال عنه، وكلُّ مانعٍ منعَكَ من شُغل وغَيره من الأمراض؛ فهو عارضٌ[7]، وبحسب تعلُّق الحرف بالفعل يختلف المعنى، فإذا قيل: أعرض لي الشَّيءُ، أي: بَدا عَرْضُهُ، وظهر، فأمكن تناولُهُ[8]، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، ومصدر أعرض إعراض واسم الفاعل منه معرِضٌ، ومعنى ﴿مُعْرِضُونَ﴾ في الآية: مولّون لاهون غيرُ مستعدّين له[9].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 7.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 779.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كتب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(6) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عرض).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرض).
(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 179.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من كمالِ عزَّة اللهِ وتمام حكمتِه أنَّه نزَّل القرآن على عبدِه؛ ليكون للعالمين نذيرًا

ابتدأت هذه السّورةُ الكريمةُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي؛ لبيانِ أنَّ هذا القرآن من جنس الأحرف المعهودة لكم، ولم تستطيعوا أن تأتوا بمثلِه، ففي الأحرف المقطَّعة بيان لإعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه تَنزيلٌ مِن عندِ اللهِ المتَّصف بكمال العزَّة الغالب، الَّذي لا يُغلَبُ، والمتَّصف بصفة الحكمة الكاملة التّامَّة في تنزيلِه للكتاب، وفي شرعِه وفي خلقِه وتدبيرِه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ المناسبِ له اللّائِقِ به.

من مقتضى خلْقِ السَّماوات والأرض بالحقِّ أن يجتمع النّاس للحساب والجزاء يوم القيامة

ويخبر اللهُ تعالى في الآية الثالثة منزِّهًا نفسَه عن العبث أنَّه ما خلق السَّماوات والأرض وما بينهما من أنواع المخلوقات إلّا بالحقِّ، فلم يخلقهما وما بينهما باطلًا وعبثًا لغير شيءٍ، بل خلق كلَّ شيءٍ مصحوبًا بالحقِّ قائمًا بالعدل، ومن الحقِّ أنَّه تعالى خلقَهما وما بينهما بتقدير وقت معيَّن مضروبٍ، لا يزيد، ولا ينقص؛ لانتهاء آجالها، وهو يوم القيامة، فلا شيءَ في الدُّنيا بدائم، ولا بدَّ من يوم يجتمع النّاس فيه للحساب والجزاء، والعجبُ من الَّذين كفروا أنَّهم عمّا أنذروا به، وخوِّفوا به في القرآن، من حلول يوم القيامة ومن الحساب والجزاء، مولّون منكرون، لا يتفكَّرون فيه، ولا يستعدّون له.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الابتداء بالأحرف المقطَّعة:

الإعجازُ في إدانة المكلَّف بمعهوداته

الحروفُ المقطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السّورةُ وغيرُها، يُقصَدُ بها بيان إعجازِ القرآنِ؛ فهذا القرآنُ مركَّبٌ من جنس هذه الحروف المعروفة، ومن نسيج لغة العرب، وهم عاجزون عن الإتيان بمثلِه، ففي حَرفَي الهِجاءِ ﴿حمٓ﴾ إشارةٌ إلى عَجْزِهم عن مُعارَضَتِه بَعدَ أن تحدّاهم، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ

به، وللعلماء فيها أقوال كثيرة، أوصلوها إلى نحو ثلاثين قولًا[1]، وتفويضُ أمر حقيقة معناها إلى الله علّام الغيوب أسلمُ وأحكمُ.

سببُ إيثارِ تكرار ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

إنَّما كرَّر المركَّب الإضافي ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في هذه السّورة، وقد جاء هذا التَّركيب الإضافي في الآية الثّانية من سورة السَّجدة، والآية الأولى من سورة الزُّمر، والثّانية في سور غافر والجاثية والأحقاف، وإنَّما كرَّر هذا التَّركيب الإضافي؛ لأنَّه صار بمنزلة عنوان الكتاب الَّذي بين أيديهم[2]؛ ليفيد أنَّ كونَه منزَّلًا من اللّه العزيز الحكيم، ممّا لا ينبغي الاختلاف فيه ولا الشَّكُّ فيه، فكلُّ ما يُذكر فيه حقٌّ وصدقٌ، فليس للمخاطَبين سوى الإذعان له، وفي التَّكرار تأكيد؛ لكونِه منزَّلًا من عند اللّه؛ إذ به يثبت الإعجاز، ويكون برهانًا على نبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ.

كـونُ الـقـرآن مـنـزَّلًا مـن الله العزيز الحكيم يـوجـب عـدمَ الاختلاف فيه

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

عبَّر بصيغة الجملة الاسميَّة: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت مضمون الجملة، بمعنى ثبوت كون هذا الَّذي يُتلى عليكم، هو تنزيل الكتاب من اللّه، وثبوت كونِه من العزيز الحكيم.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾ بلازمِه أنَّه منزَّل من علوٍّ؛ ليدلَّ على رفعة المنزَّل وعلوِّه، ففيه تعظيم للقرآن وتشريف له، وفيه تنبيهٌ كذلك إلى الاعتناء به لرفعتِه وعلوِّ شأنِه.

تـعـظـيـمُ شـأنِ القرآن وتشريفُه ببيان وصفٍ من أوصـافِـه، وهـو أنَّه نزلَ من علوٍّ

دلالةُ التَّعبير بالمصدر ﴿تَنزِيلُ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المصدر ﴿تَنزِيلُ﴾ أنَّ القرآن منزَّلٌ على دفعات، وأنَّه لم ينزل على رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ دفعةً واحدةً؛

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (الم)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 224.
(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 117.

تـنـجـيـمُ آي الـقـرآن يـؤذن بـدرك مقاصده وامتثال أوامره

ليسهل فهمُه وإبلاغه والعمل به، وأشعر وصف الله تعالى بـ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، في سياق بيان تنزيل القرآن أنَّ تفريق تنزيله هو من مقتضى عزَّة الله وغلبتِه وحكمتِه وحسن تدبيره.

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تعظيمُ شأنِ القرآن بكونِه منزَّلًا من عند اللـه العزيز الحكيم

تحتملُ الإضافةُ أن تكون على معنى لام الاختصاص، بمعنى: تنزيل للكتاب بقصد تعظيم الكتاب وتخصيص التَّنزيل به، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة الصِّفة إلى الموصوف على اعتبار أنَّ المصدر بمعنى اسم المفعول، والمعنى: هذا الكتابُ المنزَّل من الله العزيز الحكيم، على تقدير: مبتدأ محذوف، أو الكتاب المنزَّل هو من الله العزيز الحكيم، فيكون الجار والمجرور ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرًا.

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

القرآنُ هو الكتاب الكامل في معانيه ونظمِه وأحكامِه وتشريعاتِه

(الـ) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تحتمل أن تكون للكمال، بمعنى تنزيل الكتاب الكامل في معانيه ونظمِه وأحكامِه وتشريعاتِه، ففيه إشارة إلى أنَّه هو الكتاب الكامل على الحقيقة، ويحتمل أن تكون (الـ) للعهد، أي: الكتاب المعهود عندكم، ولمّا كان نزول الآية في سياق نزول القرآن، ولم يكتمل نزوله بعد أيٍّ في ذلك الوقت؛ كان المعنى: الكتاب الَّذي نزل منه بعض السّور، وفيه إشارة إلى أنَّ التَّنزيل سيكتمل، ويكون كتابًا كاملًا.

دلالةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون القرآن:

من براعةِ نظم القرآن مناسبة لفظ التَّنزيل لاقتران لفظ (الكِتابِ) به

أوثر اختيار لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون القرآن؛ لمجيء اللَّفظ في سياق التَّنزيل؛ لأنَّ المقصود بيان أنَّه منزَّلٌ من علوٍّ، وهو أنسب للوحي المكتوب في اللَّوح المحفوظ، فناسب لفظ التَّنزيل اقتران لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ به، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقام.

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة، بمعنى: أنَّ ابتداء تنزيل

الكتاب هو من الله العزيز الحكيم، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ إعجازَه وكمالَه بسبب جهة صدوره ومبدأ تنزيله.

إعجازُ القرآنِ وكمالُه بسبب أنَّ مبدأ تنزيله من الله العزيز الحكيم

براعةُ بدء السّورة بصفتي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ مع ختم السّابقة بهما:

ابتدأت السّورة بذكر وصفي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، واختتمت سورة الجاثية بذكر الوصفين الجليلين: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، والسَّبب هو بيان أنَّ العزيز الحكيم الَّذي له الحمد، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ وربُّ العالم أجمع، والَّذي له الكبرياء في السَّماوات والأرض هو نفسه العزيز الحكيم الَّذي نزَّل الكتاب، ففيه إشعار إلى وجوب طاعة ما في الكتاب والانقياد له.

بعزَّتِهِ وحكمته سبحانه وتعالي خلق الكون، وأنزل القرآن

بلاغةُ اقترانِ الأسماء الثَّلاثة ﴿ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

وردت الأسماء الثَّلاثة الجليلة؛ بيانًا لأوصاف منزِّل الكتاب، فذكر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للإشعار بوجوب تعظيمِه والإذعان له؛ لما يفيدُه اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ من الدَّلالة على وصف الألوهيَّة، وذكرَ وصف ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ للإشعار بعزَّة الكتاب، وأنَّه لإعجازِه يغلب، ولا يُغلَب، وذكرَ وصف ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ تنزيلَه بحكمةٍ بالغة وتدبير متقَنٍ، وأنَّه محكَم في نفسِه، فالتَّعرُّض لوصفي العزيز الحكيم إيذانٌ بظهور أثريهما في الكتاب، فالغلبةُ للكتاب الَّذي نزَّله الله تعالى، والَّذي حفظه، كما أنَّه بُني على أساس من الحِكَم الباهرة الظّاهرة.

التَّعرُّض لوصفي العزيز الحكيم إيذانٌ بظهور أثريهما في الكتاب

مناسبةُ الفصلِ في مطلع الآية الثالثة:

جاء قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ على طريق الفصل للاستئناف البيانيِّ، أو ما يُسمّى شبه كمال الاتِّصال؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ؛ لأنَّ الآية جاءت في مقام الاستدلال على أنَّ القرآنَ تنزيل من الله العزيز الحكيم، بمعنى: أنَّه لمّا ذكر كون القرآن تنزيل العزيز الحكيم؛ ذكر ما هو دليل عليه[1]، فكأنَّه قيل: ودليل ذلك هو أنَّنا ما خلقنا السَّماوات والأرض

الدَّعوةُ إلى التَّفكُّر في خلق السَّماوات والأرض والاستدلال به على كون القرآن من عند الله

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 450.

وما بينهما إلّا بالحقِّ، فَجُعِلَ خَلقُ السَّماواتِ والأرضِ محلَّ اتِّفاقٍ؛ لإقامتِه مقام الدَّليل لظهورِه ووضوحِه، ففي الكلام دعوة إلى التَّفكُّر والقياس؛ ليُعلَمَ الارتباطُ بين كون القرآن من عند الله، وكونه تعالى خلق السَّماوات والأرض، وما بينهما بالحقِّ.

بلاغةُ القصر في الآية:

ألوهيَّةُ اللهِ تعالى تقتضي أن يكون خلْقُهُ بالحقِّ والعدلِ

جاء قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ على طريق القصر، وسبب التَّعبير بهذا الأسلوب أنَّه لمّا أخبر الله تعالى أنَّ القرآن هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، وكان الكفّار المخاطَبون منكرين لكونِه من الله تعالى؛ جاءت الآية بطريق القصر بالنَّفي، و﴿إِلَّا﴾ لتكون في مقام الرَّدِّ على إنكارِهم كونَه حقًّا، بمعنى: كما أنَّه تعالى خلق السَّماوات والأرض، وما بينهما بالحقِّ، فإنَّه أنزل القرآن بالحقِّ، وكما ظهر لكم أنَّ السَّماوات والأرض قائمة بالحقِّ، وثبت لكم ذلك؛ لأنَّه إن لم يكن خلقهما بالحقِّ؛ كانَ باطلًا وعبثًا، وهذا لا يليقُ بعظمةِ الخالقِ وعجيب خلقِه وسعتِه، فإنَّ القرآن حقٌّ، ونزل من عند الحقِّ، وهو من قصر الموصوف على الصِّفة، وهو قصر ادِّعائيٌّ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿خَلَقْنَا﴾ دون فطرنا:

من لم يصدِّق بالقرآن؛ فهو على باطلٍ

لمّا كان المقصودُ بيان أنَّه تعالى أوجد السَّماوات والأرض وما بينهما بالحقِّ، وليس بالعبث والباطل؛ ليستدلَّ بخلقِه لهما على أنَّ القرآن تنزَّل من عنده تعالى بالحقِّ؛ ليفيدَ أنَّ مَن لم يصدِّق بالقرآن؛ فهو على باطلٍ، ولم يكن المقصودُ بيان أنَّه تعالى أوجدهما، وما بينهما على سبيل الإبداع الَّذي لم يكن، وأنَّه أوجدهما لغاية؛ عبَّر بقوله: ﴿خَلَقْنَا﴾ دون (فطرنا)؛ لأنَّ معنى فطر الله الخلق إيجاده الشَّيء وإبداعه على هيئة مترشِّحة لِفعل من الأفعال[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (فطر).

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطاب:

في الانتقال من الغيبة بذكر الاسم الظّاهر في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ إلى التَّعبير بضمير العظمة ﴿خَلَقۡنَا﴾ التفات بلاغيٌّ، وذلك لأنَّ في العدول إلى المقام الخطابي إيذانًا بكمال خلقِ السَّماوات والأرض وما بينهما، في خصائِصِه وصفاتِه وحقّيَّتِه، وفي كونِه مقصودًا لأمرٍ معيَّن.

في الالتفات تنشيطٌ لذهن السّامع وتجديدٌ للخطاب، ويختصُّ كلُّ موضع بفوائد جليلة

نكتةُ إسنادِ فعل الخلق إلى ضمير العظمة:

أسندَ فعل الخلق إلى ضمير العظمة في قولِه: ﴿خَلَقۡنَا﴾؛ تعظيمًا لشأنِ خلقِه تعالى وتفخيمًا له، بمعنى: أنَّ هذا الخلق لا يكون إلّا من الملك الواحد الأحد.

تخصيصُ ذِكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دون سائر الكون:

لأنَّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ آيتان هائلتان بارزتان، فمجرَّد الإشارة إليهما يكفي، ويرد الشّارد إلى الرُّشد سريعًا، ولم يزيدوا على الإشارة شيئًا؛ لأنَّها وحدها تكفي، فكان التَّخصيص بهما، إضافة إلى أنَّ وجود السَّماوات والأرض دالٌّ على أنَّ لهما خالقًا حكيمًا؛ لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظَّمة عن غير فاعل مختار، وذلك معلوم بأدنى تأمُّل، وذلك لتأييد إنكار وقوع الشَّكِّ في انفراده بالألوهيَّة؛ لأنَّ انفراده بالخلق يقتضي انفراده باستحقاقه عبادة مخلوقاته، إضافة إلى أنَّ أحدًا لم يدَّعِ خلْقَ السَّماوات والأرض، فكان في ذكرهما تفرُّدُ الخالقِ وعجز البشر، مع كونهما أظهرَ الآلاء وأقربها من الحواسِّ.

عظمةُ الآيتين بحيث لا تُنكران

إيثارُ (ما) عن (الذي) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

إنَّ (ما) في التَّركيب بمعنى الَّذي، فكلاهما اسم موصول، وعندما تُفسَّر (ما)؛ فإنَّها تفسَّر بـ (الذي)، لكن (ما) أعمُّ وأشمل، تُطلق على كلِّ شيء، وتُطلق على ما ليس بشيء، فهي أعمُّ؛ لأنَّ

مِن سماتها فرط الإبهام، إضافة إلى أنَّ بناءها يوافق استعمالها المتَّسع، فمدُّ الألف المتَّسع يناسب تشاكل الاتِّساع في معناها، ومِن ثمَّ كانت دالَّة على كلِّ شيء سواء أكنا عالمين به أو جاهلين، ففيها مطلق المخلوقات؛ بحيث لا يمكننا حصر ما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب؛ لذا كانت الأنسب في المقام.

بيانُ الاتِّساع وعجز الإنسان عن إدراك كنه المخلوقات

غرضُ فنِّ الطِّباق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

في عطف (الأرضَ) على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طباق لطيف؛ وذلك للإشارة إلى العالم العلويِّ والسُّفليِّ، ففي الطِّباق إشارة إلى التَّناظر بين السَّماوات والأرض، وأنَّ هذا التَّناظر جعله الله بالحقِّ كذلك.

التَّناظرُ بين السَّماوات والأرض من آثار خلقِ الله لهما بالحقِّ

دلالةُ عطفِ (ما بَينَهُما) على السّابق:

في عطف (ما بَينَهُما) على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما بين السَّماوات والأرضِ في الأحوال المتنوِّعة من شمسِها وقمرِها وكواكبِها ونجومها ومجرّاتِها ما هو من جملةِ الحقِّ، وأنَّه تعالى ما خلقَ شيئًا في هذه السَّماوات إلّا وهو ملابسٌ للحقِّ، لا ينفكُّ عنه، وعبَّر بالاسم الموصول (ما) في قولِه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾؛ للإشارة إلى عموم خلقِه بينهما وإلى أنَّ فيه إبهامًا، بمعنى أنَّ مِن أحوالِ ما بينهما ما لا نعرفُ نسبة تعلُّقه بهذا العالم، ولا نعرف مداه، ففيه إشارة إلى عجز النّاس عن معرفتِه، وإلى أنَّ الَّذي علينا هو قياس الغائب على الشّاهد؛ لنوقنَ بأنَّه كلُّ ما خلقَه الله تعالى ممّا نعلمه، وممّا لا نعلمه، لم يخلقه إلّا بالحقِّ.

تنبيهُ النّاس إلى عجزهم عن معرفة جميع أحوال العالم

نكتةُ إيثارِ الظَّرف (بَينَ) على حرف الظَّرفيَّة:

عبَّر بظرف المكان (بَينَ) في قولِه: ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ دون أن يقال: (وما فيهما)؛ للتَّنبيه إلى سَعة ما خلقه الله تعالى بين السَّماوات والأرض؛ لأنَّ ظرف المكان (بَينَ) مبهمٌ غير مختصٍّ، بمعنى أنَّه ليس له حدود معلومة ونهايات مضبوطة، ولو قيل: (وما فيهما)؛ لدلَّ على أنَّ ما

ما بين السَّماوات والأرض غير محدود، والخلق عاجزون عن معرفة جميع أسرار خلقِ الله تعالى

بين السَّماوات والأرض له حدود معيَّنة، فأفاد التَّعبير بظرف المكان المبهم (بَينَ) كون ما بين السَّماوات والأرض غير محدود في نظرِنا ومعرفتِنا؛ تعظيمًا لشأنِ خلقِه تعالى، وتعجيزًا للمخاطَبين عن معرفة جميع أسرار خلقِه.

بلاغةُ الاحتراسِ في إضافةِ الظَّرف لضمير التَّثنيةِ:

جـاء ضـمير التَّثنية لدفع توهُّم أنَّ الضَّمير يعود لغير المراد

ضمير التَّثنية في قوله: ﴿بَيْنَهُمَآ﴾ عائدٌ على لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والتَّقدير: وما بين السَّماواتِ والأرضِ، فالمرجوع عليه السَّماواتُ - باعتبارِ مجموعِها - والأرضُ، ولو قال: (وما بينها)؛ لتوهِّم أنَّ الضَّمير عائد إلى السَّماوات، والمعنى: وما بين السَّماوات، أو لتوهِّم أنَّ الضَّمير عائد إلى الأرض، والمعنى: وما بين قطْعِ الأرض، فجاء الضَّمير بصيغة التَّثنية للاحتراس ودفعِ التَّوهُّمِ.

نوعُ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾:

الاستثناءُ في قولِه: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هو استثناء مفرَّغٌ؛ ليفيد الاستثناءَ من عمومِ الأحوال، ويحتمل أن يكون قولُه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حالًا من المفعول، والتَّقدير: ما خلقناهما في حالٍ من الأحوال إلّا في حالِ ملابستِهما بالحقِّ والحكمة، كما يحتمل أن يكون حالًا من الفاعل، والتَّقدير: ما خلقناهما في حالٍ من الأحوالِ إلّا في حالِ ملابستنا لخلقِهما بالحقِّ، ومآل المعنى على الوجهين واحدٌ[1]، وهو إثبات كونِ خلقِه تعالى لهما بالحقِّ، وكونِ خلقِهما ملتبسًا بالحقِّ، وأنَّ خلْقَهما ليس عبثًا وباطلًا، ففي الاستثناء من أعمِّ الأحوالِ من الدَّلالة على وجودِ الصّانعِ تعالى وصفاتِ كمالِه وابتناءِ أفعالِه على حِكمٍ بالغةٍ وانتهائِها إلى غاياتٍ جليلةٍ ما لا يخفى.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 450.

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

كلُّ ذرَّةٍ في هذا الوجود، لها مكانُها فيه، ولها وظيفتُها الَّتي تؤدّيها لانتظامِ نظامِه، واتِّساقِ حركتِه

الظّاهر أنَّ الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة، والمعنى: ما خلقنا السَّماوات والأرض وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ غير منفكٍّ عنه[1]؛ ليفيد إثبات التباس خلقِها بالحقِّ، ونفي ماعداه نفي أن يكون خلقهما بالباطل والعبث، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّ كلَّ ما خلقَه اللّه تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ، وأفعالُه سبحانَه كذلك، وفي إثبات كونِ خلقِهما وما بينهما بالحقِّ إيذانٌ بأنَّ كلَّ ذرَّة في هذا الوجود، لها مكانها فيه، ولها وظيفتها الَّتي تؤدّيها لانتظام نظامه، واتِّساق حركته، وتقتضي ملابسة الحقِّ لخلقِ السَّماوات والأرض ألّا يكون خلقًا عبثًا، بل هو دالٌّ على أنَّه يعقبُه جزاءٌ على ما يفعلُه المخلوقون[2]، وتحتمل الباء أن تكون سببيَّة، والتَّقدير على وجهين، فإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السَّماواتِ والأرْضَ وما بينهما إلّا لأجل الحقِّ، أي: بسبب إقامة الحقِّ بين الخلقِ[3]، ولِلعدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السَّماوات والأرضَ، وما بينهما إلّا بسبب الحقِّ الَّذي اقتضاه الدَّليل من الإيمان والطّاعة أو البعث والجزاء.

نكتةُ تعريف لفظ (الحَقِّ) ونوعه:

(الـ) في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للجنس؛ لتفيد استغراق جميع أنواع الحقِّ، ليشمل لفظ الحقِّ معنى خلقِهما بالحكمة والغرض الصَّحيح[4]، والثّابت والواجب الحسن الَّذي قد حُقَّ أن يكون.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 294، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 7.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 6808، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2055، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 597.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 294، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 91.

نكتةُ تنكير لفظ (أجَلٍ):

نُكِّرَ لفظ (أجَلٍ)؛ للإشعار بأنَّ الوقت المحدَّد الَّذي ينتهي إليه خلق السَّماوات والأرض وما بينهما، وهو يوم القيامة مبهمٌ غيرُ متعيَّن عند المخاطَبين، لكنَّه ثابتٌ مقدَّرٌ عنده تعالى.

نهايةُ العالم مبهمٌ عند النّاس ثابت معيَّن عند الله تعالى

دلالةُ وصف (أجَلٍ) بصفة ﴿مُّسَمًّىۚ﴾:

وُصِفَ الأجل بكونِه ﴿مُّسَمًّىۚ﴾؛ للإشارة إلى كونِ زمن بقائِهما محدَّدًا بوقتٍ مؤقَّت، فلا بقاء لخلقِهما بمقتضى ملابستهما للحقِّ، فالفناء محدَّد في وقتٍ معيَّن للمخلوقات، وهو يوم القيامة الَّذي يأتي بعده البعثُ والنُّشور.

نوعُ الواوِ ودلالتها في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الَّذين كفروا خرجوا عن سنَنِ الحقِّ بتكذيبِهم بالبعثِ والجزاء يوم القيامة

الواو في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للحال، والجملة الاسميَّة حاليَّة[1]، فتكون مرتبطةً بجملة الاستثناء على معنى اقتران المستثنى بهذه الحال، والتَّقدير: إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ في حالِ إعراض الَّذين كفروا عن ما أنذروا به، ممّا دلَّ عليه خلقُ السَّماوات والأرض وما بينهما بالحقِّ، والغرض من مجيء الحال التَّعجيب من موقف الَّذين كفروا الَّذين خرجوا عن سنن الحقِّ الَّذي قام عليه الوجود كلُّه، وأعرضوا ما أنذروا به من البعثِ والجزاء يوم القيامة، مع أنَّه تعالى خلق السَّماوات والأرض خلقًا ملتبسًا بالحقِّ مصاحبًا له، كما أفاد الحال تقريعَهم وتوبيخَهم على كفرِهم وإعراضِهم عمّا أُنذروا به، ويمكن أن تكون الواو استئنافيَّة شرعت بوصف حال الَّذين كفروا مع الإنذار، ولكنَّ الحمل على الحاليَّة أفضل.

بلاغةُ استعمالِ الاسم الموصول (الَّذِينَ كَفَرواْ):

الكفرُ سببٌ للإعراض عن الإنذار بالبعثِ والحساب

أفاد التَّعبيرُ بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ الإيماءَ إلى وجه إعراضِهم، بمعنى: أنَّ سببَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 77، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 7.

إعراضِهم هو كفرُهم باللّه تعالى وبرسولِه ﷺ، وبالقرآن المنزَّل، وفيه كذلك إشارةٌ إلى تسجيل كفرِهم عليهم، والتَّعريض بإهانتِهم بوصفِهم بفعل الكفرِ، كما أنَّ فيه تنبيهًا إلى غرابةِ فعلِهم وإعراضِهم عمّا أنذروا به؛ وذلك لتوجيه ذهن المخاطَب إلى ما سيخبر به عنهم منتظرًا لورودِه عليه، فإذا وصل إلى الخبر ﴿مُعْرِضُونَ﴾ تمكَّن علمُه بسوء فعلِهم وقبْحِ إعراضِهم.

غرضُ استعمالِ عنوان الكفر دون الشِّرك:

الكفرُ أنواعٌ وأقبحها الكفر باللّه ورسوله ﷺ وبالقرآن وبيوم القيامة

لمّا أخبر تعالى عن أنَّه ما خلقَ السَّماوات والأرض وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ ولأجل الحقِّ وإقامتِه؛ كان المناسب التُّعبيرَ عن إعراض المعرضين بوصفِهم بالكفرِ، فقال: (الَّذِينَ كَفَرُواْ)، ولم يقل: (والذين أشركوا)؛ وذلك لأنَّ الكفرَ بمعنى السَّتر، فأشعر التَّعبير بالكفر بأنَّهم ستروا فطرتِهم وعقلَهم عن الحقِّ الظّاهر في خلقِهما، كما أشعر اللَّفظ تنوُّع كفرِهم، فلم يقتصروا على الإشراك باللّه تعالى، بل كذَّبوا القرآن، وكذَّبوا رسولَه ﷺ، وكذَّبوا بيوم القيامة وبالجزاء فيه.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لإثبات وقوعِ كفرِهم، وللإشارة إلى أنَّ مَن يعرض عن ما أنذر به يوم القيامة إنَّما هو لتحقُّق كفرِه ووقوعِه منه.

نكتةُ حذفِ متعلَّق الكفر:

لم يُذكر مفعول الكفر هنا بقوله: كفروا باللّه أو رسوله أو باليوم الآخر، وغيره، وذلك للتَّعميم حتّى يشمل كلَّ هذا وغيره ممّا يمكن أن يكفر به.

دلالةُ حرف (عَنْ):

في قولِه: ﴿عَمَّآ﴾ أفاد حرف الجرِّ (عَنْ) المجاوزة، بمعنى مجاوزةِ إعراضِهم؛ لِما أُنذروا به، فلا يتفكَّرون فيه، ولا يستعدّون لحلولِه؛ ليفيدَ تعدّيهم بهذا الإعراض.

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

(ما) في قولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ موصولة؛ لتفيد عمومَ ما أنذروا به من البعثِ والحساب والجزاء والثَّواب والعقاب، ويكون العائد محذوفًا، ودلَّت عليه قرينة السّياق، وتقديره عمّا أنذروا به، كما تحتمل أن تكون مصدريَّة[1]، والتَّقدير: والَّذين كفروا عن إنذارِهم معرضون، ولا حذف على هذا التَّقدير.

التَّعبيرُ بالاسم العامِّ الموصول أدلُّ من غيره على عموم ما أنذروا به

نكتةُ تقديمِ ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ على ﴿مُعْرِضُونَ﴾:

قُدِّمَ متعلِّق الخبر من الجار والمجرور في قولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ على الخبر ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ للاهتمام بالمتعلِّق؛ لأنَّه هو موضعُ التَّعجيب من مجيءِ جملةِ الحال، وكأنَّ أهمَّ ما تسبَّب عن كفرِهم هو إعراضُهم عمّا أُنذِروا به، كما أنَّ في تقديم متعلِّق الخبر على ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رعايةً للفاصلة ورؤوس الآي.

من أهمِّ ما يتسبَّب عن الكفر بالله الإعراض عن إعداد العدَّة ليوم القيامة

بلاغةُ بناء فعل ﴿أُنذِرُواْ﴾ للمفعول:

جاء الفعلُ ﴿أُنذِرُواْ﴾ بصيغة المبني للمفعول؛ للإشعار بأنَّهم معرضون عن البعثِ ويوم القيامة بغضِ النَّظر عن من ينذرُهم، فليس سبب إعراضِهم عنه أنَّه من منذرٍ معيَّن، فهُم معرضون عنه من أيِّ منذرٍ كان.

توجيهُ تخصيصِ الإنذار بالذِّكر دون البشارة:

أوثر لفظُ الإنذار دون البشارة في قولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾؛ لمجيئِه في سياق لفظ الكفرِ المناسب للإنذار.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 111، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 431.

سببُ إيثارِ مجيء الخبر اسمًا دون أن يقال يُعرضون:

الجملةُ الاسميَّة أدلُّ من الفعليَّة على الثَّبات والتَّمكُّن

أوثرت جملة الحال أن تكون اسميَّةً، بمجيء مسندِها اسمًا مشتقًّا ﴿مُعْرِضُونَ﴾، دون أن يقال: (يُعرضون)؛ لتفيد تمكُّن إعراضِهم وثبوته، وهو المناسبُ لسياق ذِكر لفظ الحقِّ الدّالِّ على التَّمكُّن والثُّبوت، ففيه معنى التَّعجيب من مخالفتِهم الحقَّ الَّذي تقوم عليه السَّماوات والأرض وما بينهما.

نكتةُ استعمال مفردة ﴿مُعْرِضُونَ﴾:

الإعراضُ عنِ الدَّليل مذموم في الدّين والدُّنيا

عبَّر بلفظ ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ الذين كفروا لم يقفوا عند حدِّ الإنكار والتَّكذيب، بل تعدّوا إلى إعراضِهم عمّا أُنذروا به، أي: إنَّهم مبدون إعراضهم؛ لِما أُنذروا به، مدبرون عنه إلى ناحية بعيدةٍ، غيرُ مهتمّين به؛ تعبيرًا عن صرف عقولِهم عن التَّفكير بيوم القيامة والاستعداد لحلولِه وإبائِهم له، ففي طيِّ اللَّفظ معنى إنكارِهم؛ لِما أُنذروا به وتكذيبِهم به، وعبَّر بصيغة اسم الفاعل؛ للإيماء إلى أنَّ إعراضَهم عمّا أنذروا به صار وصفًا ثابتًا لهم وعادة معروفةً بهم؛ لكثرة تكرُّره منهم ولإصرارِهم عليه.

من فوائد الجملة الخبريَّة في الآية:

من دلالات الجملة الخبريَّة بيانُ أنَّ مِن الحقِّ الإيمان بالبعثِ؛ ليكون متناسقًا مع حقّيَّة، كونه تعالى ما خلق السَّماوات وما بينهما إلّا بالحقِّ وفيه فائدة أخرى، وهي وعظُ المخاطَبين وزجرِهم، أي: فانتبهوا أيُّها النّاس، وانظروا ما يراد بكم، ولِمَ خُلقتم[1].

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 91، والعليمي، فتح الرّحمن: 6/ 280.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"